رسالة إلى
المسلم في بلد أجنبي

الأستاذ الدكتور

شوقي أحمد دنيا

رسالة مقدمه للمؤتمر الدوري الثاني لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا
٤-٦ جمادى الأولى ١٤٢٥ هـ ❁ ٢٢-٢٤ يونيو ٢٠٠٤ م
كوبنهاجن- الدانمارك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله. وبعد

فهذه رسالة مختصرة موجهة إلى المسلم في بلد أجنبي لا يتخذ من الإسلام دينه الرسمي، وإن كان يقره ويؤمّن أتباعه على عقيدتهم ودينهم. وهذه الرسالة وإن كانت موجهة في الأصل إلى هذا المسلم المقيم في بلد أجنبي إقامة دائمة أو مؤقتة بهدف من الأهداف المشروعة، من طلب للعلم أو تدريس وتعليم له، أو طلب للعمل، أو لغير ذلك من المقاصد الحياتية العادية فإنها تتوجه تبعاً إلى كل من له علاقة وطيدة بهذا المسلم من حيث تزويده بالعلم الشرعي والمعرفة الدينية مثل الفقهاء الذين يتناولون أفعال المسلمين المقيمين بالخارج من حيث الحكم الشرعي، وكذلك الدعاة الذين يفدون إليهم للدعوة والتوعية.

وهي ليست رسالة فقهية بالمعنى الفني المعروف للأعمال الفقهية التي تعني تبيان الأحكام الشرعية الجزئية التفصيلية لما يعن من أفعال وتصرفات من هؤلاء المسلمين، فلمثل ذلك رجاله القادرون عليه.

وإنما مقصدها طرح إطار إسلامي عام لتعامل المسلم في بلد أجنبي مع محيطه الذي يتكون في غالبيته من غير المسلمين.

ولسنا في حاجة إلى التذكير بأن المسلم الذي هذا حاله ووضعه يعايش ليل نهار تعاملات وعلاقات متعددة متنوعة، منها ما هو مع أفراد، ومنها ما هو مع جماعات وتجمعات، ومنها ما هو مع حكومات وهيئات.

وإقامة المسلم اليوم في بلدان أجنبية لم تعد في مجملها من باب الترف أو الكماليات، كما أنها لم تعد من باب الضرورة الطارئة والظرف الاستثنائي. بل أصبحت أمراً معتاداً، بل أحياناً تكون مطلوبة ومرغوبة. ولم تعد البلاد الأجنبية اليوم بالنسبة للمسلمين دار حرب كما جرى التصنيف الفقهي القديم، فهناك المواثيق والاتفاقيات والقوانين الدولية الحاكمة والضابطة والمنظمة للعلاقات بين الدول، وفي الغالبية العظمى

من هذه الدول إن لم تكن كلها نجد من الأنظمة والأعراف بل والقوانين التي تؤمّن للمقيمين فيها دينهم وعقيدتهم وشريعتهم.

والمسلمون اليوم لا يسعهم الإنكفاء على أنفسهم و الإنعزال عن الغير، فما هم بقادرين على ذلك، لمصالحهم الدنيوية، ولا ذلك مرغوب منهم من الناحية الدينية، فهم شهداء على الأمم ، وعليهم باسم الإسلام التفاعل معهم بشكل صحيح، حيث إن في ذلك نوعاً من الدعوة والتبليغ والشهود، ولا يخفى مالحاجة المسلمين اليوم من طلب للعلوم المتعددة والمتنوعة من الدول الأجنبية التي سبقتنا في مضمار العلم والمعرفة، كما لا يخفى مدى حاجة العديد من شباب المسلمين اليوم للنزوح والهجرة إلى بلاد غير إسلامية طلباً للعمل وتوفير متطلبات الحياة، لما هنالك من فرص للعمل لا تتوفر اليوم في بلاد المسلمين. وهكذا تتعدد المطالب التي دفعت وتدفع العديد من المسلمين للإقامة في بلاد غير إسلامية لا تتخذ من الإسلام ديناً رسمياً لها. وإن اعترفت به كدين له أتباعه وأحكامه. وهكذا أصبحت ظاهرة الأقليات الإسلامية ظاهرة شائعة وسائدة في العديد من البلدان غير الإسلامية في الغرب والشرق.

والسلم المقيم في بلد أجنبي يجد نفسه اليوم أمام معضلة صعبة عليه حسن التصرف حيالها، فإقامته هذه لم تعد للكثير ترفاً يمكن التنازل عنه وعدم الوقوع فيه، وهو في الوقت ذاته مطالب بالتمسك بعقيدته وشريعته التي لا يؤمن بها ولا ينصاع لأحكامها أو للكثير منها نظام البلد وتقاليده وأعرافه. فكيف يوفق بين هذا وذاك ؟

ومع الاعتراف للمسلم المقيم ببلد أجنبي بهذه الحالة الصعبة والوضعية القاسية فإنه، وبكل أسى وأسف، لم يعد في أيامنا هذه متميزاً تميزاً بيّناً بهذه الوضعية، فالمسلم اليوم في معظم حالاته وأوضاعه غريب في بلاده. وإلا فأين هي البلاد التي يطبق فيها الإسلام بأحكامه وشرائعه تطبيقاً مقبولاً في ضوء المعايير الموضوعية ؟!

ولا أظنني مخطئاً إن قلت إن الخلاف بات اليوم شكلياً أكثر مما هو حقيقي بين أوضاع المسلمين في بلاد المسلمين والبلاد الأخرى، هناك عري وفسق وفجور، وهنا في بلاد المسلمين عري وفسق وفجور، هناك غش وظلم، وهنا غش وظلم أكبر بكثير، هناك تعاملات مالية محرمة، وهنا نفس الشيء. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

إن هذه الرسالة ما هي إلا مجرد إرشادات ومشاعل قد تفيد المسلم الغريب في حياته وتسهل له وتيسر عليه انتهاج الطريق القويم الذي يحقق قدراً طيباً من سلامة الدنيا وصحة الدين. وهي تذكير ببعض المبادئ والقيم والقواعد أكثر منها أي شيء آخر.

التذكير بفطرة الخلق :

لحكمة جليلة قد لا ندرك كل جوانبها اليوم أشار القرآن الكريم، مصدر الإسلام الأول، في أكثر من آية إلى نشأة الإنسان والفطرة التي فطره الله عليها وسنة لله في خلقه للناس على هذا النحو الذي بينه القرآن الكريم أيما بيان وتعرفت عليها علوم البشر المختصة.

لقد بين القرآن في هذا الصدد حقيقة ذات ركيزتين ؛ ركيزة الوحدة، وحدة الأصل والمنشأ. وركيزة التنوع والتعدد داخل هذه الوحدة وفي إطارها. فالناس من حيث الأصل متحدون، وهم من حيث الواقع مختلفون متنوعون متمايزون. إن البشرية شجرة واحدة جذرها واحد هو آدم وحواء ولها فروع وأغصان متعددة متمايزة.

قال تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً..﴾ [النساء، الآية رقم (١)] وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات، الآية رقم (١٣)]. وقال ﷺ : " يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ".

الله سبحانه وتعالى يخاطب الناس، يخاطب الجنس البشري كله تحت مصطلح الناس وليس تحت مصطلح الإنسان، إشعاراً لهم بأنهم على تنوعهم وتعددهم

وتمايزهم وعلى ما بينهم من اختلافات عديدة، هم من حيث المبدأ والأصل يرجعون إلى أصل واحد، هم جميعاً من أب واحد وأم واحدة. ومعنى ذلك وحدة الانتماء البشري. فالآية الكريمة تقرر بوضوح وجلاء الحقيقة البشرية المتمثلة في الوحدة والتنوع. ومؤدى ذلك وجود العديد من مقومات التوحد والمشاركة بين الجميع من جهة، ووجود العديد من وجوه التمايز والاختلاف من جهة أخرى. فالناس شعوب كثيرة وقبائل متعددة وليسوا شعباً واحداً ولا قبيلة واحدة. ومعنى وحدة الأب والأم أن الناس جميعاً أخوة أشقاء، وناهيك عما يحمله لفظ الأخوة من دلالات ومضامين تدور حول الرحمة والمودة من جانب، وحول المساواة والندية من جانب آخر. وقد نبه سيدنا علي كرم الله وجهه على ضرورة مراعاة هذه الحقيقة عند التعامل وهو يوصي أحد ولاته قائلاً : " الناس صنفان : إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق " (١).

وصدق الشاعر إذ يقول :

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبوهم آدم والأم حواء

وبعد أن قررت الآية الكريمة هذه الحقيقة البشرية قدمت بعداً ثالثاً يتمثل في حكمة الخالق من إيجاد البشر على هذه الحالة، وهو تعاونهم، وكان الظاهر المتبادر أن تكون الحكمة " تعاملهم " فالتنوع والتمايز مدعاة للتعامل، لكن القرآن الكريم أضرب عن ذلك وجاء بلفظة " التعارف "، والتعارف أعمق وأبعد مدىّ من التعامل، فهو تعامل من خلال المعرفة والعلم، معرفة كل شعب أو قبيلة أو أمة بالأخرى. وصيغة التفاعل تقتضي المشاركة في العلم والمعرفة. والعلم والمعرفة أبعد ما يكونان عن العصب والتنابز والتخاصم والتعالي والاستكبار، فعلى كل طرف أن يعرف الآخر. ثم إن المادة (عرف) توحي بما هو ابعد من ذلك، فهي كما تفيد العلم والمعرفة تفيد أيضاً المعروف، ففيها بعد قيمي، ومعنى ذلك أهمية سيادة القيم الإنسانية النبيلة في علاقات الناس المختلفة. وقد عبَّر عن هذا الملفت بشكل جيد أحد الباحثين إذ يقول : " إن مبدأ التعارف مقتضاه الإجمالي أن التواصل السليم لا

(١) الشريف الرضى، نهج البلاغة، دار الأندلس، بيروت، ص ٥١٨.

يكون إلا بكلام طيب بين متكلمين كرماء. وتفصيل ذلك في أصلين أثنين : الأصل الأول أنه لا تعارف بغير معروف. ذلك أن التعارف غير الاتصال المعلوماتى، فالاتصال تواصل خبري لا اعتبار فيه للقيم الأخلاقية، في حين أن التعارف تواصل خبري لا ينفك عن القيم الخلقية المحمودة.

والمعلوم أن الشيء ذا القيمة الخلقية المحمودة هو الذي جرى الاصطلاح عليه باسم المعروف، أي الخير الذي تعارف عليه الناس جميعاً " (١) ثم يواصل محللا وموضحاً مغزى التعبير القرآني الكريم (لتعارفوا).

ثم التفتت الآية الكريمة إلى بعد رابع موضحة معيار التفاضل بين الشعوب، حتى لا تختل الموازين ولا يتعالى البعض على البعض، فليست المسألة مسألة جنس أو عرق أو لون أو غنى أو فقر أو حنى إنتماء لدين معين، لا شئ من ذلك كله يعد المعيار الصحيح للتفاضل، وإنما هو أمر واحد هو تقوى الله (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) هو العمل الصالح الذي يفيد الجميع، ويشيع الخير والمعروف بين الناس. وقد جسد الحديث الشريف هذه الحقيقة قائلا : " يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ".

وعلى المسلم دائماً أن يعي هذه الحقيقة الإنسانية، وخاصة من يعيش في وسط مغاير مخالف ؛ عقيدة وشريعة وثقافة، فلا ينزعج من هذا التغاير والتمايز والاختلاف، فتلك هي سنة الله في خلقه، ولو شاء الله سبحانه لجعل الناس أمة واحدة، دونما أي تمييز ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [سورة هود : ١١٨].

ولا يحملن ذلك التمايز المسلم على محاولة إزالته، فذلك غير ممكن من جهة، كما أنه غير مطلوب ولا مقبول من جهة أخرى، كما لا يحملنه ذلك على احتقار

(١) د. طه عبد الرحمن، إسلامية المعرفة ـ العدد ٣٦ ص ١٦٥ وما بعدها. المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

الغير لمجرد أنه غير أو مخالف، ولا معاداته، فالآخرية أو الغيرية شيء والعداء شيء آخر، وما كل من هو مخالف مغاير عدو.

إن أي سلوك يحمل شائبة من تلك الشوائب هو سلوك غير إسلامي، فوق كونه غير فطري أو أخلاقي.

من واجبات المسلم حيال الآخرين أو من حقوق الآخرين على المسلم :

لم يقف الإسلام في شأن علاقة المسلم بالغير عند حد تقرير الحقيقة البشرية وفطرة الله التي فطر الخلق عليها من الوحدة والتنوع، ولم يكتف بما تتضمنه هذه تلك الحقيقة من نتائج وآثار تضبط علاقة المسلم بالغير، بل تجاوز ذلك بالنص الصريح على العديد من تلك الضوابط الحاكمة للسلوك، والمبادئ التي تدور في فلكها العلاقات، ومن ذلك :

١ـ العدل :

المسلم مطالب بالعدل مع الغير أيا كان هذا الغير، وإذا كان عدل المسلم مع الغير بوجه عام مطلوباً شرعاً فإنه آكد في الطلب الشرعي مع غير المسلم،حتى لا يدور بخلد المسلم أن الغير، طالما كان مخالفاً في الدين أو حتى معادياً فمن المقبول ظلمه وعدم العدل معه. قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ.. ﴿٩٠﴾ ﴾ [سورة النحل : ٩٠] وقال تعالى :﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ.. ﴿٨﴾ ﴾ [سورة المائدة : ٨].

ويقول سبحانه في الحديث القدسي : " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا.. ".

وبهذا وبغيره فليس من حقك أيها المسلم أن تظلم الآخر بأي صورة من صور الظلم، ولا أن تعتدي عليه في أي شيء من مقومات حياته ؛ المادية والمعنوية ؛ من نفس أو مال أو عرض أو نسل أو فكر أو غير ذلك.

ويوم يتفهم المسلم ذلك المبدأ الإسلامي جيداً، ويعمل ويسلك ويتصرف في ضوئه سيحقق لنفسه فائدتين ؛ إحداهما إرضاء الله تعالى، لطاعته فيما أمر ونهى، والثانية الحياة الطيبة في دنياه والتعايش الاجتماعي المستقر والأمن مع الآخرين الذين يحيطون به من كل جانب. لأن الإنسان، بغض النظر عن دينه ومذهبه، يحب العدل ويألف من يعدل معه.

٢- الإحسان :

كما أمر الله تعالى المسلم بالعدل أمره بالإحسان " إن الله يأمر بالعدل والإحسان.." والإحسان، كما هو معروف منزلة ومكانة فوق العدل، فلا يقف الأمر عند حدود المكافأة بالمثل، بل الزيادة على المثل في الجانب الإيجابي. يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [سورة النساء : ٨٦] تدبر أخي المسلم نسق الأمر الإلهي تجده أولا يأمر بالإحسان أو الفضل أو الرجحان وعدم التعادل والتكافؤ، فإذا لم يكن ذلك فلا أقل من العدل وتماثل المواقف . ومعنى ذلك أن يقابل السيئة بالحسنة، والحسنة بحسنة أحسن.

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة فصلت : ٣٤].

ومن الأمور اللافتة للنظر أن هذا المستوى الراقي من المعاملة والسلوك لا يقف في الإسلام عند تعامل المسلم مع المسلمين، بل يتجاوزه إلى تعامل المسلم مع الآخرين من غير المسلمين. فقد طالب الإسلام المسلمين أن يبروا غيرهم ويعدلوا

معهـــم ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [سـورة الممتحنة:٨]. وأن يكون سلوكهم مهم هو سلوك الفضل والإحسان، المعاملة بـالتي هي أحسن والقيام بما هو فوق ما يجب القيام به، فإذا أحسن إليـه الغيـر فلـيكن إحسانه به أبلغ، وإذا أساء إليه فلا ينبغي أن يدفع الإساءة بالإساءة. فمن ظلم منهم فلا يظلم ومن غش منهم فلا يغش ومن خان فلا يخان ومن سب فلا يسـب ومـن سرق فلا يسرق، وهكذا يكون سلوك المسلم مع الغيـر، مـثلاً أعلـى فـي النبـل والأخلاق. والمسلم بذلك يقدم الإسلام للغير بأنقى وأفضل ما يكون التقديم، مزيحـاً عنه كل ما لصق به، خاصة في زمننا هذا، من تهم وبهتان، هو أبعـد مـا يكـون عنها. وعلى المسلم أن يعي جيداً أن سلوكه هذا لا ينبئ عن ذلة ومسكنة وهوان.

فالإسلام أكره ما يكره لأتباعه هو المذلة والهوان والمسكنة. ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [سـورة آل عمـران : ١٣٩] وعندما اشتد غضب الله تعالى على اليهود ضرب عليهم الذلة والمسـكنة ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴿١١٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٢] . ومعنـى ذلك ان عليك أيها المسلم وأنت تسلك مع الغير هـذا السـلوك النبيـل الراقـي أن تستشعر في قرارة نفسك، بل وأن تشعر الغير بأسلوب حسن أن مبعث ذلـك هـو العزة والاستعلاء الأخلاقي.

وقد عبر الشاعر عند ذلك بقوله :

فتى كان عذب الروح لا من غضـاضة ولكن كبراً أن يقال به كـبر

إن المسلم في بلد أجنبي بهذا السلوك الأخلاقي الراقي سوف يسهم في دخول العديد من الغير في الإسلام، ومن لا يدخل فيه منهم فلن يملك إلا احترام الإسلام وتقديره، وبهذا تصحح صورة الإسلام لدى الغير ويزال ما علاها من غبش وصدأ. ومن صور البر والعشرة الطيبة مشاركة المسلم الغير في أفراحه و أتراحه، فيقدم التهاني في المناسبات السارة والسعيدة، ويقدم العزاء عندما تنزل به نازلة من نوازل الدهر. وأحياناً يتطلب الموقف المؤازرة والدعم النفسي والمعنوي. وسيرة رسولنا الكريم حافلة بنماذج مشرقة في هذا الصدد، فقد واسى المشركين في نوازل ألمت بهم، وكان يقف لجنازة اليهودي عند مرورها.

وعلى المسلم ان يدرك ما هنالك من فروق قوية، وإن دقّت في بعض الحالات، بين بره بغيره ومشاركته في أفراحه ومناسباته، وبين التعظيم والميل القلبي والشعور النفسي نحو ما يحتفلون به من أعياد ومناسبات. بعبارة أخرى إن الولاء والبراء شئ، والبر والمشاركة الحسية شئ آخر. وليس هذا التمييز المهم وضرورته من عندي، وإنما هو الهدى القرآني نفسه، ولحكمة ربانية جليلة جاءت آيات البر والبراء والولاء متتالية في سورة قرآنية واحدة حتى يتضح للمسلم بكل جلاء لا يحتمل الغموض أو التأويل والاشتباه أن البر بالغير مطلوب وأنه مغاير تماماً للولاء، وعلى المسلم ان يعي ذلك جيداً. واقرأ إن شئت سورة الممتحنة. وفيها تجد الهدي الإسلامي الصحيح الصافي النقي البعيد كل البعد عن مواقف البعض المتطرفة في هذا الصدد.

٣ـ احترام الأنظمة والقوانين والأعراف والتقاليد السائدة :

مفتاح القضية كلها أن يضع المسلم الغريب نصب عينيه دائماً أنه يعيش في بلد أجنبي، أو بعبارة أخرى في بلد لا يتخذ من الإسلام وعقيدته وشريعته ديناً له يحكم قوانينه وأنظمته وتشريعاته.

ومتى أدرك ذلك المسلم الغريب انضبط سلوكه حيال القوانين والأنظمة السائدة. فلا يخرج عليها ولا ينتهكها، بحجة أنها مخالفة للإسلام منافية لتشريعاته وأحكامه. فالشأن فيها ذلك، وإلا ما كانت دولة أجنبية أو غير إسلامية. وخروج المسلم

الغريب على القانون والحكم في الدولة التي يعيش فيها غير مقبول إسلامياً ، والإسلام لم يطلب من المسلم في هذه البلدان الثورة على أنظمتها وانتهاك قوانينها، بل يعد ذلك من المسلم خروجاً على النهج الإسلامي، وقديماً عاش المسلمون أقلية في مكة قبل الفتح، وفي غيرها، وما خرجوا على الأعراف والأنظمة السائدة. وكان هناك شرب الخمور والتجارة فيها والتعامل بالربا وارتكاب الزنا ولعب الميسر والقمار وهناك العري والكثير من الأمور المحرمة في الإسلام، وهي موجودة في البلاد غير الإسلامية اليوم، والمطلوب منك أن تلتزم أنت ومن تعول بهذه الأحكام لا أن تلزم غيرك بها، فهو غير مسلم من حيث المبدأ. وليس عليك ولا لك أن تهاجم وتحتقر وتذم بلسانك وتصرفاتك. والآية الكريمة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [سورة المائدة:١٠٥] خير مرشد وأصدق هادٍ لك أيها المسلم الغريب. وهكذا فإن الذي عليك هو عدم التفريط من قبلك أنت في حكم شرعي. وعند ذلك فقط تكون ملاماً شرعاً فليس من حقك أن تقيم في أرض لا تمكن فيها من تطبيق وتنفيذ أحكام الشرع. قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا.. ﴿٩٧﴾ ﴾ [سورة المائدة :٩٧] نجد الآية الكريمة لم تطلب من القلة المسلمة الخروج على القوانين والأنظمة المخالفة للإسلام، بل كل ما طلبته منهم إذا لم يتمكنوا من تطبيق الأحكام على أنفسهم أن يتركوا هذه البلاد. وبالطبع فإن هذا الموطن من القضية معقد وحساس وشائك، فليس من السهولة واليسر الهجرة وترك البلد في كل حال. ومن ثم فقد تناول العلماء، وخاصة الفقهاء بالدراسة والبحث هذه القضية وقدموا فيها العديد من التفريعات والأحكام المفيدة، والتي على المسلم المعاصر معرفتها من خلال فقهائنا المعاصرين، حتى لا يضيّعَ ما لا يجوز تضييعه من جهة، ولا يشتط ويرتكب الصعب ويحتمل الحرج والعسر من جهة أخرى.

والمبدأ الحاكم يتجسد في قوله تعالى﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ ورحمه الله الإمام العز بن عبد السلام حيث يقول : " التكليف تارة يسقط بالامتثال وتارة يسقط بتعذر الامتثال ".

وعلى المسلم في بلد أجنبي أن يعلم علماً جيداً أن الذمي والمستأمن في بلد الإسلام له حرية كبيرة وحقوق واسعة كفلها له الإسلام، وفي الكثير منها مغايرة ومخالفة للهدى الإسلامي، ومع هذا فقد احترم فيه كونه غير مسلم، رغم أنه يعيش في ظل دولة إسلامية يهيمن الإسلام على أرجائها وينضوي الجميع تحت لواء هديه وتشريعاته، وإذا كان ذلك كذلك فإنه من باب أولى أن لا يتعرض المسلم الغريب لغيره في ممارساته تلك في بلد لا تتخذ من الإسلام وأحكامه نظاماً لها.

التفاعل مع الغير في القضايا العامة :

هل يعيش المسلم في بلد أجنبي منعزلا متقوقعاً منكفئاً على نفسه داخل كردون حسي ومعنوي، بعيداً عن صخب الحياة وضجيجها وحركتها أم يدلف لتيار الحياة ويخوض لجتها ويتفاعل معها ويضيف إليها ويأخذ منها ؟

ليس من الممكن ولا من المطلوب ولا من المقبول من المسلم أن يعتزل القوم الذي يعيش بينهم ويساكنهم. فالإسلام دين الشهادة، والمسلم شاهد للغير وعليه،ولا شهادة مع العزلة والتقوقع. والإسلام دين إلهي لكل الناس، فهو دعوة عالمية لكل العالم، والمسلم بعد إسلامه مطالب بالدعوة إلى الإسلام وتبليغه، بلسان الحال أو بلسان المقال. وسوف نعود لهذه المسألة بقدر من التوضيح لاحقاً، لكن الذي نريد قوله هنا أن مؤدى ضرورة الدعوة والتبليغ التمازج والتعايش والتفاعل الإيجابي من المسلم أينما كان، وكما قال بحق إسماعيل الحسني " إن المسلم إنسان يتفاعل تفاعلا إيجابياً مع الواقع، لا بمعنى الوقوع فيما يحمله من ظلم وبغي، ولا بمعنى التسليم بما قد يؤدي الإنخراط في مكوناته وتنظيماته من مذلة وهوان، بل بمعنى الجهد والاجتهاد في التعامل مع معطيات الواقع من أجل تحويلها إلى ممكنات تخدم

مقاصدنا في الإصلاح والصلاح. والحق أن التشبع المستمر بعنصر التفاعل الإيجابي، خاصة من لدن أفراد الأقليات المسلمة، يحررهم من الاستسلام لألام واقعهم ومن الركون إلى الانطواء على أنفسهم كما ينقلهم التفاعل مع وسطهم إلى الوسطية والتوسط، لأن منطق الانسحاب والتقوقع على الذات يعمي المرء ويحجب عنه التبصر بالحقائق الموضوعية التي يتضمنها الوسط المجتمعي، ومنه الوسط الذي توجد فيه الأقليات المسلمة بجانب الأكثرية غير المسلمة. ومن هذه الحقائق الموضوعية ما عبر عنه الفقهاء بقاعدة الأخذ بأخف الضررين. أما الضرر الذي يلزم عن التفاعل الإيجابي للأقليات المسلمة مع الأكثريات ما أسماه العلواني بتحمل نوع من المجاملة في نوع من الغبش الذي لا يمس جوهر العقيدة أو أساسيات الدين، وهو في تقديرنا ضرر خفيف يمكن تحمله وأن الضرر الذي ينتج عنه السلبية التي تؤدي إلى إنسحاب وترك مصالح الأقليات المسلمة وأمورها الدينية فوضى لا نظام لها ولا قانون يضبطها ويحكمها هو كما لا يخفى ضرر كبير، لا يمكن للمسلمين تحمله، وعليه وجب على الأقليات المسلمة مشاركة الأكثريات في الحياة المجتمعية مما لم يمنع عنه الشرع منعاً صريحاً. لذلك فان كل منصب أو موقع يحصل عليه المسلم يمكن إن أحسن توظيفه أن يكون مكسبا في تعديل النظم والقوانين التي تتسق مع مقاصد شريعتهم، بل قد يكون ذلك عاملا من العوامل الفاجعة في التأثير على القرار السياسي، سواء المتعلق بمشاكل وجودهم أو المرتبط بقضايا الشعوب الإسلامية " (١).

وفي ضوء هذا التحليل الجيد وفي إطار من القواعد والمبادئ الشرعية المتمثلة في تقديم درء المفاسد على جلب المصالح وغيرها يمكن القول : إنه من المرغوب والمطلوب من المسلم الغريب أن ينخرط في الحياة السياسية والحزبية بقصد تحسين أنظمتها والاستفادة مما بها، فلقد أجاز الإسلام جوار المشركين، وقد طلب نبي الله يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام تولي الوزارة في دولة لم تكن آنذاك دولة

(١) إسلامية المعرفة، قراءة في بنية فقه الأقليات، العدد ٣٠ خريف ٢٠٠٣ م ص ١٢٥

مسلمة ([1]) وهناك العمل في المؤسسات والشركات وهناك العمل في العديد من المهن مثل المحاماة والتدريس والمحاسبة وغيرها.

وكل ذلك يخضع للمبادئ العامة الإسلامية المنظمة لهذا المجال. واظن من حق المسلم الدخول في تلك الأعمال، طالما لم تكن حراماً بذاتها، ولتكن نيته ومقصده إحقاق الحق ما أمكن وتقليل الباطل أو إزالته ما أمكن. وقد كانت هذه القضية مثار جدل وحوار وخلاف بين العلماء، منهم من تسامح ومنهم من تشدد ([2]) وأرى أن يكون لمبدأ التسامح و التيسير الغلبة، وليس كل حزب سياسي مغايراً في كل بنوده للهدي الإسلامي، فهناك ما هو أقرب من غيره، وهناك من يدعوا إلى ما يدعوا إليه الإسلام من حفاظ على البيئة والصحة والحقوق المشروعة للجميع. وقد دخل الرسول ﷺ قبل البعثة في حلف الفضول وأخبر أنه لو ظل هذا الحلف قائما في الإسلام لانضم إليه.

بل إنني لأذهب إلى أبعد من ذلك، وأرجو ألا أكون مخطئا فيما ذهبت إليه، من أنه إذا ساغ الخلاف بين علماء المسلمين حول اشتراك المسلم في الأحزاب والهيئات الحكومية والحكومة في بلاد الإسلام في حال ابتعاد أنظمتها عن الإسلام، فلا ينبغي أن يكون هذا الحال مع المسلم في بلد غريب، بل يرغَّب إلى المشاركة والتفاعل، لكن مع الحزب الأقرب إلى الحق من غيره وبقصد إصلاح ما يمكن إصلاحه.

وقفه مع الفقهاء والدعاة :

هي همسة أكثر منها وقفة، وهي مجرد تذكير وتنبيه بأهمية وحيوية الأقليات الإسلامية اليوم. وتستمد هذه المسألة حيويتها وأهميتها من روافد عديدة، منها أن هذه الأقليات باتت اليوم تعد بالملايين، بل إن بعضها ليتجاوز عدده عدة دول إسلامية مجتمعة ثم أنها أصبحت تتشكل من العديد من الأعراق والجنسيات، فمنها من هم من سكان البلاد الأصليين، ومنهم الوافدون من دول إسلامية متعددة. ومعنى

---

(١) محمد الوكيلي، فقه الأولويات، المعهد العالي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٩٧ ص ١٨٩ وما بعدها، عبد الرحمن عبد الخالق، المسلمون والعمل السياسي، الدار السلفية،ط١، ١٩٨٦ ص ٣٣ وما بعدها

(٢) محمد الوكيلي، مرجع سابق، ص ١٨٨ وما بعدها.

ذلك أنهم جميعا، وإن اشتركوا في الإسلام، لكنهم مع ذلك متعددو الأعراق والأجناس والثقافات.

كما أن هذه الأقليات لم يعد وجودها في هذه البلد أو تلك أمرا عارضا، بل أصبح أمرا عاديا مستقرا، حتى وإن كانوا وافدين من دول إسلامية. فهناك إمكانيات التحرك والإقامة والهجرة، وهناك احتياجات العمل وطلب الرزق، وهناك طلب العلم والمعرفة الخ....

ثم هناك اليوم حملة شرسة على الإسلام والمسلمين، متخذة من بعض مبادئه وأحكامه، ومن أفعال وسلوك بعض المسلمين غرضا للطعن والتشويه.

بل لا نبالغ إن قلنا إنه يوجد اليوم لدى البعض من ذوي البطش والقوة والجبروت من يعمل جاهدا على إجتثاث الإسلام من الأرض، حتى من بلاده الأصلية، كما يعمل على إبادة المسلمين، فإن لم يستطع فابعادهم عن دينهم إن استطاعوا. وهكذا فإن الأقليات الإسلامية اليوم أصبحت تمثل نقاط قوة ونقاط ضعف في نفس الوقت، فإن حسن سلوكهم كانوا قوة فعالة للمسلمين، وذلك لمخالطتهم الوثيقة للغير. وإن ساء سلوكهم كانوا وبالا على الإسلام وعلى المسلمين، وليس فقط على أنفسهم. والأمر متوقف في ذلك إلى حد كبير على موقف قادة الدول الإسلامية وعلمائها وفقهائها. وفي ضوء هذا الواقع المعقد المضطرب يمكن تفهم مدى أهمية موقف العلماء والفقهاء من هذه القضية. وقد قام الفقهاء والدعاة بجهد كبير وطيب في هذا المجال، فهناك أكثر من مجمع فقهي متخصص في دراسة أوضاع الأقليات المسلمة. ونود بهذا الصدد ألا يقف الأمر في تشكيل هذه المجامع على أوربا وأمريكا، بل تتسع لتغطي الكرة الأرضية في آسيا وأفريقيا واستراليا، كما نود أن يجري بينها أكبر قدر من التعاون والتنسيق. وحبذا لو كان هناك لقاء دوري يجمع بين القائمين عليها، وحبذا لو كان هناك ميثاق يشتمل على المبادئ العامة التي يلتزم الجميع بالعمل في إطارها، بعدا عن التضارب والتنازع والتشتت.

وبالنسبة للدعوة والفكر فعلينا أن نميز بين نوعين من الدعوة، الدعوة بلسان الحال والدعوة بلسان المقال. أما الأولى فكل المسلمين المقيمين بالخارج ملزمون

بها، إذ هي لا تخرج عن انضباطهم في السلوك والأفعال والأقوال وشتى التصرفات بقيم الإسلام ومبادئه وآدابه. فالمسلم من خلال عمله يدعو الغير إلى الإسلام وإلى احترامه وتقديره.

أما الثانية فلا يدخل فيها إلا من هو مؤهل لها، وإلا كان دخوله فيها معصية يعاقب عليها شرعا، لأنه يضر أكثر مما يفيد، وإذا كانت المهن المختلفة من طب ومحاسبة لغير ذلك لا يدخل فيها إلا من هو مؤهل لها فالأحرى أن يكون هذا في مهنة أو عمل الدعاة. وقد بين الإسلام ذلك، يقول تعالى :

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [سورة يوسف : ١٠٨]

فالدعوة إلى الله لابد أن تكون على بصيرة، وعلى الداعي أن يستوفي متطلبات ومقومات الدعوة الرشيدة. قال تعالى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [سورة الإسراء : ١٢٥].

وليس توفر الحكمة وتوفر القدرة على الموعظة الحسنة والقدرة على الجدل بالتي هي أحسن بالأمر السهل. ومن ثم فإن المطلوب ألا يقدم على ذلك إلا من هو أهل له. وعليه أن يراعى الزمان والمكان، ومن ثم اختيار الموضوعات، وعليه الابتعاد كلية عن أسلوب الذَّم والتحقير للغير، ولما هو عليه من سلوكيات، وبدلا من ذلك يركز على إظهار محاسن الإسلام، وبضدها تتمايز الأشياء.

وبالنسبة لفقهائنا الأجلاء فلا أملك إلا أن أضع تحت أبصارهم بعض القواعد التي هم أعلم بها وبمضمونها وبمقتضاها مني، وإنما هي التذكرة ليس إلا.

١. من الضروري الاهتمام الفائق بفقه الأولويات وضرورة توظيفه التوظيف الجيد.

٢. من الضروري استحضار مقاصد الشريعة ومراتبها من ضروريات وحاجيات وتحسينات. وضرورة عدم تزاحم المرتبة الأدنى مع المرتبة الأعلى.

٣. من الضروري الإعمال الجيد لقاعدة المصالح والمفاسد.

٤. من الضروري إعمال مبدأ التيسير ورفع الحرج.

٥. من الضروري إعمال مبدأ التسامح مع الغير.

٦. من الضروري البعد عن الاختلافات والتصارع وتعميق نقاط الخلاف الفقهية.

٧. من الضروري الالتفات القوي إلى فقه الواقع وعدم إغفاله أو تجاهله.

والله تعالى أعلى وأعلم